الصراع الديني على شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

«بواعثه - أبعاده - آثاره»

د. بكر زكي عوض
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة

التعريف بالبحث

الجزيرة العربية مهبط الوحي عبر التاريخ، منها خرج أنبياء وإليها هاجر أنبياء ومنها أرسلت رسل لهداية البشرية، كما تميزت بموقعها الجغرافي لإطلالها على المياه من ثلاثة جوانب ولتضمنها مواقع استراتيجية من ناحية ثانية، مما جعل الأبصار تتطلع إليها عبر التاريخ وإن تفاوتت البواعث فهل استطاعت تحقيق ما تريد؟ هذا ما عالجه البحث في الفترة الزمنية من منتصف القرن الرابع الميلادي حتى منتصف القرن السابع الميلادي تقريبا.

والله من وراء القصد.

مقدمة البحث

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الذي اصطفاه الله من العرب تكريما لهم وتخليدا لذكرهم وجعل ذلك منّة عليهم (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(١) .

وأنزل عليه قرآنا يتلى إلى قيام الساعة فيه التخليد له ولقومه (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (٢) وأمرنا بتدبره في آيات عدة حتى نهتدي في مسيرتنا في هذه الحياة (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(٣) .

وبعد

فان العلم بأخبار السابقين من فروض الكفاية . فكم وردت آيات تحث المسلمين على السير والنظر ، كما وردت آيات أخرى تأمر بذكر القصص الهادف أو تذكره في بعض الأحيان لأخذ الحيطة والحذر والاعتبار .

وكم ربط القرآن بين بعض المواقف زمن التنزيل وبين مواقف أخرى سبقت عصر التنزيل كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر لأصحابه بعض أخبار السابقين في بعض المواطن للتأسي والاعتبار حينا وللاقتداء أحيانا أخرى ولعلّه مراد الرسول من حديثه (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)(٤) .

ومن الإشارات التي وردت في القرآن الكريم ، حديثه عن الصراع بين الفرس والروم زمن النبوة ، ومحاولة أصحاب الفيل ـ حلفاء الروم ـ السيطرة على البيت الحرام ، وهزيمة هؤلاء شر هزيمة مع لفت نظر قريش والمسلمين إلى هذه النعمة كما أشار إلى رحلتي الشتاء والصيف وأثرهما في يسر العيش لأهل مكة .

---

(١) سورة التوبة ١٣٨

(٢) سورة الزخرف ٤٤

(٣) سورة المائدة ١٥ ، ١٦

(٤) الحديث : صحيح البخارى ك الأنبياء والترمذى ك العلم ومسند أحمد ٢/ ١١٩ .

وفي عصرنا الحاضر بدأ كثيرون يعيدون النظر في التاريخ القديم في ضوء ما ورثناه من كتب وما اكتشف من آثار وماحل من رموز، مع تغليب الجانب العقلي على الجانب العاطفي حين الكتابة وتقديم النظرة الشمولية على النظرة الجزئية عن طريق الجمع بين الروايات المتعددة والنظر في الكتابات المتباينة عقدياً أو سياسياً مع التماس الدلائل لترجيح ما يذهبون اليه. حتى بدت كتاباتهم أقرب إلى المعقول منها إلى بعض المنقول وبخاصة إذا تنزهت البحوث عن الأهواء.

وهذا البحث يعالج قضية الصراع الديني المسيحي على الجزيرة العربية قبل الإسلام من كافة الجوانب (السياسية والإقتصادية والإجتماعية) في غير فصل بين الأحداث وأهدافها المتعددة، بمثل ما أعرض كتاب السيرة عن بعض البواعث والأهداف وفعل بعض السياسيين مثل ذلك وشاركهم في هذا بعض الاقتصاديين، فكانت الكتابات في بعض الأحيان موجهة بدءا أو قبل البدء فيها.

كما يشير هذا البحث إلى مكانة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لدى الفرس والروم بخاصة وإن لم يدرك بعض العرب قيمة موقعهم بمثل ما أدرك أولئك تلك القيمة. كما يؤكد تطلع هاتين الدولتين إلى تلك المنطقة عن طريق الاستيلاء أو المعاهدات والأحلاف أو الزج بآخرين لتحقيق مآربهم في تلك الديار لما لموقع هذه الجزيرة من أهمية سياسية وإقتصادية قبل الإسلام.

وقد استعان الروم بالدين لتحقيق مآربهم فأرسلوا من ينشر المسيحية ونصروا الجماعات المسيحية في اليمن ونجران ووقعوا حلفا لتنصير مكة ــ لم يكتب له النجاح ـ فضلا عن محاولة تنصيرها بقوة السيف إلا أن الله هزم أبرهة فلم تنصرّ مكة وإن فشت النصرانية في الأطراف الشمالية والجنوبية في شبه الجزيرة. كما اعتنقها بعض الأفراد في مكة ومنهم من كان نصراني المولد.

وقد اعتمد الروم في نشر المسيحية في شبه الجزيرة على طريقتين:

الأولى : عن طريق الأفراد معتمدين على الحيل وخوارق العادات.

الثانية: الاستعمار مع الإكراه العقيدي ورد كل عادية على النصرانية في الجزيرة العربية.

وقد بدأت حركة التنصير منذ منتصف القرن الرابع الميلادي يدفع الروم إلى ذلك أمران :

الأول : بعد تبني قسطنطين النصرانية ثم تنصره أذن بها تعميما ونشرا لما لذلك من آثار إيجابية في الحروب فضلا عن المكاسب السياسية والاقتصادية من جراء النشر وقد تبعه في ذلك خلفاؤه في الحكم .

الثاني : إيمان المسيحيين بعالمية المسيحية كما تصوره نصوص العهد الجديد نظرياً وعملياً ولم يمض سوى قرنين حتى كادت المسيحيةأن تسيطر على كثير من بلدان شبه الجزيرة وكانت نعمة الله على أهل الجزيرة خاصة وعلى الناس عامة بالإسلام الذي رد عادية النصرانية عن الجزيرة أولا ثم أخرج المسيحية من الجزيرة ثانياً فضلاً عن إعلاء منزلتها ولفت نظر البشرية إليها منذ ظهر وإلى يومنا هذا . حيث فرض شعيرة لاتؤدي إلا في ديارها وفي بقاع محددة منها كما أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كعنصر ربط بين المسلمين .

فهل يعتبر المسلمون من أحداث الماضي ويدركون فضل الإسلام فينتفعون به في الحاضر فالأرض هي الأرض وإن اكتسبت جمالا عن ذي قبل والموقع هو الموقع وإن اكتسب قيمةعن ذي قبل والصراع هو الصراع وإن اختلفت المسميات عن ذي قبل ، والله نسأل أن يحفظها في زماننا بما حفظها به في صدر الإسلام . آمين .

عالمية المسيحية كما وردت بالعهد الجديد

وردت نصوص عدة تصرح بعالمية المسيحية زماناً ومكاناً وإنساناً وقد تفاوتت الدلائل على ذلك . فمنها ما ينسب الى عمل المسيح عليه السلام ومنها ما ينسب إلى وصايا المسيح لتلاميذه ومنها ما يتعلق بعدم نسخ شريعة المسيح إلى قيام الساعة ومنها ما يتعلق بعودة المسيح إلى الأرض مرة ثانية ليحاسب كل من لم يؤمن به . . . الخ

ويمكن بيان ذلك من خلال نصوص العهد الجديد فيما يلي :

أولا: عمل المسيح ودلالته على العالمية:

كثرت النصوص التي تصرح بأن المسيح كان يتحرك في أمكنة عدة بهدف نشر المسيحية وإذا كان المؤرخون يقصرون حركة المسيح على منطقة فلسطين فإن النصوص قد وردت بصيغة العموم ومنها .

١ ـ مانسب إلى المسيح أنه كان (يطوف المدن كلهاوالقرى يعلم في مجامعها ويكرر في بشارة الملكوت . . .)(٥)

٢ ـ «ولما أكمل يسوع أمره لتلاميذه الاثنى عشر انصرف من هناك ليعلم ويكرز في مدنهم ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى»(٦) .

ثانيا: وصايا المسيح لتلاميذه بنشر الرسالة لسائر أرجاء الأرض

ويبدوا أن فكرة عالمية المسيحية كانت تراود مدوني الأناجيل ومؤلفي أعمال الرسل حتى إن الانسان ليلحظ كثرة النصوص الدالة على العالمية وتقاربها من حيث اللفظ والمعنى نذكر من هذه النصوص مايلي :

(أ) ورد في متى : أن المسيح كان يرسل رسلا للبلاغ ويرسم لهم المنهج ومن النصوص : «هؤلاء الاثنى عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرىّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات . . وأي مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا وحين تدخلون البيت سلموا عليه . فان كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه . . ومن لايقبل ولايسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم . . .)(٧) .

---

(٥) متى ٩/ ٣٥

(٦) متى ١١/ ١

(٧) متى ١٠/ ٥ـ١٥ .

ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى فإني الحقّ أقول لكم لاتكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الانسان . . .)[٨] .

كما يدعى النصارى أن المسيح بعد قيامه من قبره قال لتلاميذه (رفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس . . . [٩] .

كما ينسب إليه أنه قال في حق المرأة التي سكبت الطيب على رأسه (ألحق أقول لكم حينما يكرز بهذا الإنجيل في العالم يخبر أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها . . .)[١٠] .

(ب) ورد في مرقس : مايفيد العموم كذلك ومن النصوص : ما ينسب إلى المسيح بعد قيامته من قبره (ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام . وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن . . ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله . وأما هم فخرجوا فكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة . . .)[١١] .

وينسب إلى المسيح أنه في حال حياته (دعا الاثنى عشر وابتدأ برسلهم اثنين اثنين وأعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة . . فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بزيت مرضي كثيرين فشفوهم . . واجتمع الرسل إلى يسوع وأخبروه بكل شيء كل مافعلوا وكل ما علموا . . .)[١٢] .

ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فذهبوا إليه وأقام اثنى عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا ويكون لهم سلطان على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين)[١٣] .

(جـ) ورد في لوقا : ودعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع

(٨) متى ١٠/ ٢٣

(٩) متى ٢٨/ ١٨, ١٩

(١٠) متى ٢٦/ ١٣

(١١) مرقس ١٦/ ١٤ــ٢٠

(١٢) مرقس ٦/ ٧, ١٢, ٣٠

(١٣) مرقس ٣/ ١٣ــ١٥

الشياطين وشفاء أمراض وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ويشفوا المرضى . . فلما خرجوا كانوا يجتازون في كل قرية يبشرون ويشفون في كل موضع ولما رجع الرسل أخبروه بجميع ما فعلوا فأخذهم وانصرف منفردا إلى موضع خلاء . . وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضا وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه إلى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعا أن يأتي . . الذي يسمع منكم يسمع مني والذي يرذ لكم يرذلني . والذي يرذلني يرذل الذي ارسلني فرجع السبعون بفرح قائلين : (يارب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك . . .)(١٤) .

كما نسب إليه أنه بعد قيامته من قبره رأى تلاميذه (وقال لهم هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث . وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم وأنتم شهود لذلك . هاأنا أرسل اليكم موعد أبي . فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي . .)(١٥) .

«كما ورد أن المسيح بعد قيامته من قبره رأى تلاميذه» وقال لهم هكذا هو مكتوب وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم وأنتم شهود لذلك وها أنا أرسل إليكم موعد أبي . . فأقيموا في مدينةأورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالي(١٦) .

ثالثاً: عدم نسخ الشريعة

يرى النصارى أن المسيح أتى متمما لرسالة موسى عليه السلام دون أن يغير شيئا فيها (ماجئت لأنقص بل لأكمل . .(١٧) وأعلن عن رسالته بقوله (السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لايزول)(١٨) .

---

(١٤) لوقا ١٠/ ١, ١٦, ١٧

(١٥) لوقا ٢٤/ ٤٦ : ٤٩

(١٦) لوقا ٢٤/ ٤٦ : ٤٩

(١٧) متى ٢٧/ ٤٠

(١٨) متى ٢٤/ ٣٥ ونفس النص لوقا ٢١/ ٢٣

رابعاً: عقيدة رجعة المسيح وعالمية المسيحية

وردت نصوص عـدة في العهد الجديد تصرح بعـودة المسيح إلى الأرض مرة ثـانية وهذه النصوص تجمع بين الإجمال والتفصيل. فبينما تصرح بعض النصوص أن المسيح سيأتي في فترة زمنية وجيزة من صلبه. كما يزعم النصارى. وذلك قبل أن يموت بعض مشـاهديـه صرحت نصوص أخـرى بأنـه سيأتي لكي يدين الأحيـاء والأموات لعـدم إيمانهم بـه أو للتقصير في نشر رسالتـه ويمكن ذكـر بعض النصـوص الدالـة على ذلك فيمايلي:

١ - نصوص مجملة: تبعث الأمل في العودة و الثبات على الرسالة والاشتغال بالنشر، ومنها:

— «ألحق أقـول لكم إن من القيام هـا هنا قـوما لايـذوقون الموت حتى يـروا ابن الانسان آتيا في ملكوته»(١٩).

— «فإني الحق أقول لكم لاتكلمون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الانسان»(٢٠).

— «وقال لهم الحق أقول لكم إن من القيـام ههنا قوما لايـذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة»(٢١).

— عندما سأل بطـرس المسيح عن منزلة سمعان (أحد الحواريين) ومـاذا أعد له؟ (قال له يسوع إن كنت أشـاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك اتبعني أنت. فزاع هـذا القول بين الأخـوة أن ذلك التلميـذ لايمـوت ولكن لم يقل لـه يسوع إنـه لايموت بل إن كنت أشاء أنه يبقى حتى أجيء فماذا لك. . .)(٢٢).

٢ ـ نصوص مفصلة تبين علة المجيء وحكمته ومنها:

— ينسب إلى المسيح قـوله (فإن ابن الإنسـان سوف يأتي في مجد أبيـه مع ملائكتـه وحينئـذ يجازي كل واحد حسب عملـه. ألحق أقـول لكم إن من القيام ههنـا

(١٩) متى ١٦/ ٢٨
(٢٠) متى ١٠/ ٢٣
(٢١) مرقس ٩/ ١
(٢٢) يوحنا ٢٠/ ٢١ـ٢٣

قوما لايذوقون الموت حتى يروا ابن الانسان آتيا في ملكوته . . .)[٢٣] .

— (ومتى جاء ابـن الإنسان في مجـده وجميـع الملائكة القديسيـن معـه فحينئـذ يجلس عـلى كـرسيِّ مجده ويجتمع أمامـه جميع الشعـوب فيميـز بعضهم مـن بعض كما يميـز الـراعي الخراف من الجداء . فيقيم الخراف عن يمينـه والجداء عن اليسار . . .)[٢٤] .

— ورد في سفر أعمال الـرسل أن المسيح ظل يظهر للتـلاميذ أربعين يـوما ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله ، أما المجتمعون فسألوه قائلين يارب هل في هـذا الوقت تـرد الملك إلى إسرائيل . فقـال لهم ليس لكم أن تعـرفوا الأزمنـة والأوقات التي جعلها الأب في سلطانه . لكنكم ستنالون قوة من حلول الروح القدس عليكم وتكونون لي شهودا في كل أورشليم وفي كل اليهودية وا لسامرة وإلى أقصى الأرض)[٢٥] .

أثر الإيمان بعالمية المسيحية على المسيحيين

لقد كان للنصوص السـابقة أثرها على أتباع المسيح عليـه السلام . ويبدو أن فكرة عـودة المسيح قبل أن يمـوت بعض التـلاميـذ الـذين عـايشـوه وقبل أن تكتمل مـدن إسرائيل ـ تبشيريا ـ لأجل الدينونة كان لها دور فعال في أن ينهض التلاميذ بالدعوة بعد الصلب والقيامة ـ كما يزعم النصارى ـ إلى المسيحية .

وقد ذكر مدونوا العهد الجديد أن التلاميذ قد جمعوا أنفسهم ورتبوا شئون الكنيسة في فترة زمنيـة وجيزة للغـاية بهدف التحـرك بالمسيحيـة في بلاد الشـام بأثرهـا . إلا أن دعوتهم قـد اصطدمت مرة ثانيـة باليهود ، كما لاقت مقـاومة فعالة من الـروم الوثنيين الـذين كـانـوا يخضعـون منطقـة الشـام لنفـوذهم في ذلك الحين ، وقـد خشى حكـام الولايات التابعون للحاكم العـام الوثني (قيصر) من انتشار المسيحية . وحتى لاتؤدي إلى حركـة تمرد على حق الحاكم(الوثني) من قبل المسيحيين (الموحدين) كانت حـركة

(٢٣) متى ١٦/ ٢٧ ، ٢٨
(٢٤) متى ٢٥/ ٣١ـ٣٣
(٢٥) أعمال ١/ ٦ـ٨

الاضطهاد التي بـدأت من منتصف القرن الأول للميلاد ولم تـرتفع إلا مع مطلع القرن الرابع الميلادي.

ويدعى النصـارى أن حركة الاضطهـاد تلك كانت بعنـاية الرب ورعـايته، لأنها أكسبت المسيحيين قوة ولفتت نظر الآخرين إليهـم وأعجب كثير من الوثنيين بصلابة اعتقاد النصـارى وبخاصة إذا مـاخُيِّروا بين الحرق أو التخلي عن الدعـوة فكان الحرق أحب إليهم من الدعـوة إلى الوثنيـة. كما أن الإلقاء إلى السباع الجوعى وطـلاء الأفراد بالقار وإيقـاد النار فيهم في الميادين العـامة ومشاهدةحكام الـرومان ـ بالتتـابع ـ لتلك المشاهد كان بمثابة الدعاية إلى المسيحية من طرف خفي.

إلا أنه أمام حـركات الاضطهاد تلك قد استطـاع بعض المسيحيين أن يُنَصرِّ أفراداً من خارج منطقة الشام في ذلك الوقت. فكتاب العهد الجديد يذكرون أن أحد الرسل واسمه (فيلبس) قـد ظهر ملاك الرب لـه «قائلا قم واذهب نحو الجنـوب على الطريق المنحـدرة من أورشليم إلى غـزة التي هي بريـة. فقـام وذهب وإذا رجل حبشي خصي وزير لكنداكة ـ ملكة الحبشة ـ كـان على جميع خزائنها. فهذا كان قد جاء إلى أورشليم ليسجد. وكان راجعا وجالسا على مركبته وهو يقرأ النبي أشعيا ـ فقال الروح لفيلبس تقدم ورافق هذه المركبة.

فبادر إليه فيلبس. . وفيما هما سائران في الطريق أقبلا على ماء. فقال الخصي هو ذا ماء ماذا يمنع أن أعتمد. فقال فيلبس إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز فأجاب وقال أنـا أؤمن أن يسوع المسيـح هو ابن اللـه. فأمـر أن تقف المركبـة فنزل كـلاهما إلى الماء فيلبس والخصي فعمـــده، ولما صعـدا من الماء خطف روح الـــرب فيلبس فلم يبصره الخصي أيضا. وذهب في طريقه فرحاً وأما فيلبس فوجد في أشدود وبينما هو مجتاز كان يبشر جميع المدن حتى جـاء إلى قيصريـة[٢٦] وبذلك بـذرت بذور المسيحيـة في بلاط الحكم في بلاد الحبشة.

كذلك هرب بعض المسيحيين الموحـدين إلى الاسكندرية فنشروا المسيحية بها على أسـاس من التـوحيد حتى إن آريـوس الاسكنـدري كـان له دور بـارز في مجمع نيقيـة

(٢٦) أعمال الرسل ٨/ ٢٦: ٣٩

(٣٢٥م) في الدعوة إلى الإيمان بإله واحد هو الله وإلى الإيمان ببشرية المسيح ونبوته[٢٧] . . مما يدل على سلامة الفكر الديني المسيحي المصري في ذلك الوقت عند كثيرين وإن وجدت آراء مضادة لذلك الرأي أيضا .

الجزيرة العربية والنصرانية

لم تشر كتب التاريخ والسير إلى أن المسيحية قد دخلت شبه الجزيرة العربية في القرون الثلاثة الأولى للميلاد وإنما بدأت حركة التنصير فيها بعد أن أصبحت المسيحية دينار سميا لروما بعد تعميد قسطنطين وتبني الدولة حركة التنصير واتخاذها المسيحية سبيلا لتحقيق الأهداف والمطامع السياسية في بلاد مصر والحبشة وشبه الجزيرة العربية . وقد فشت فيها المسيحية من طريقين :

الطريق الأول : تبشيري أو تنصري .

الطريق الثاني : استخدام السيف كوسيلة للتنصير .

وسبل الطريق الأول تجلت في هجرة بعض الرهبان الى شبه الجزيرة العربية وخروج بعض العرب لطلب أحب الأديان إلى الله والتجارة ومن وإلى بلاد الشام والتجارة من وإلى بلاد الحبشة وقيام بعض النصارى بديار العرب لأسباب متعددة . . . الخ .

وسبيل الطريق الثاني تجلى في التماس الأسباب لإكراه الناس على التنصر أوحمل الناس على ترك التهود فضلا عن اتخاذ الدين ستارا لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية وهو مايتمثل في فتح اليمن وغزو مكة بمساندة قيصر الروم وتنفيذ ملوك الحبشة الذين كانوا خاضعين لإمرة الروم في ذلك الوقت .

ومن البلدان التي دخلتها المسيحية من طريق التبشير ـ في شبه الجزيرة مايلي :

١ ـ اليمن في الجنوب : والتي تسربت إليها مباديء النصرانية على المذهب المنوفيزتي[٢٨] من عهد قديم . وربما كان المرسلون السوريون قد قصدوا اليمن في

(٢٧) راجع المجمع بالتفصيل فى تاريخ الأقباط زكى شنودة ، تاريخ الكنيسة يوسابيوس القيصرى

(٢٨) يرى أتباع هذا المذهب أن المسيح عليه السلام ذو طبيعة واحدة لاهوتية تجلت فى شخص إنسان .

أزمنة مجهولة لدينا فرارا من الاضطهاد. وكانت أول سفارة نصرانية إلى الجنوب تلك التي أوفدها الإمبراطور قسطنطين سنة (٣٥٦م) يرأسها ثيوفيلس إندسي الأريوسي (على مذهب آريوس) الذي أنكر لاهوت المسيح، وأهم البواعث الداعية إلى هذه الإرسالية توضحها الحالة السياسية بين الدول آنئذ والمنافسة بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية إذ نشطت كل منهما إلى توطيد هيبتها في جنوبي الجزيرة وأفلح ثيوفيلس في إنشاء بيعة في عدن وبيعتين في أرض حمير(٢٩).

٢ - نجران في جنوب الجزيرة العربية دخلتها المسيحية على يد راهب يسمى (عبدالله بن التامر) نسب المؤرخون إليه كثيراً من خوارق العادات كإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى والنجاة من النار وقبوله كل تحد على قتله... وقد ذكر بعض كتاب السير أن ابن التامر (كان رجلاً صالحاً من نصارى الشام ويظهر من سياق الأخبار أنه ممن فر بدينه هاربا من أرض الرومان. إمّا لاضطهادهم النصارى أو لمحاولة مزج المسيحية ـ من قبل الرومان ـ بالفكر الوثني(٣٠).

وقيل إن ابن التامر هذا عربي وأنه اعتنق المسيحية على يد راهب يسمى (فيمون) كان يقطن نجران بعد الفرار إليها وقد شاهد ابن التامر منه عجائب وغرائب جعلته يعتنق المسيحية ويظهر بها خوارق العادات حتى آمن بالمسيح على يديه كثيرون(٣١).

وقد دخلت المسيحية نجران في فترة زمنية متأخرة عن دخولها إلى اليمن (فقد كانت مركزا للنصرانية في جنوب شبه الجزيرة منذ أن تمكن (فيميون) الراهب من نشر المسيحية بها سنة (٥٠٠م) وأسس بها كنيسته على المذهب المونوفيزيتي... ولعلهاالكنيسة الكبرى التي سماها العرب (كعبة نجران) وكانت مقامة من أدم من ٣٠٠ جلد وكانت لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل. وفيها يقول الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها

(٢٩) تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨٠ د/ قليب حتى وآخرين ط ٣/ ١٩٦١ دار الكشاف للنشر والطباعة
(٣٠) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١١٩ والبداية والنهاية ٢/ ١٦٨ وخاتم النبيين ١/ ٥٧.
(٣١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٢١ ــ ١٢٢ وسمط النجوم العوالى ١/ ٢٣٥.

تـــزور يـــزيـــدا وعبدالمســـيح وقيســـاهم خيـــر أربـــابها
وشـاهـــدنـا الـــورود والياسمـــ ـــين والمسمعـــات بقصـــابها[٣٢]

ولقد بقيت للنصرانية بنجران بيعة واحدة معروفة إلى الأزمنة المتأخرة. وإلى هؤلاء النصارى المقيمين بنجران أرسل يعقوب السروجي (ت٥٢١م) كتابا بالسريانية يحثهم فيه على الجهاد الروحي ثم جاء الإسلام فأجلى عمر النصارى[٣٣] من نجران.

ويبـدوا من كتـابـات المؤرخين أن هـــذين الشخصين قـد لعبـا دورا كبيرا في نشر المسيحية بنجران وأنها تنسب إليهما معا وإن كان لفيميون فضل السبق على ابن التامر في بعض الروايات التي أثبتت أنه سمعه وتأثر به واعتنق دينه ثم اشتغل بنشره. بينما تذكر بعض الـروايات أن ابن التـامر أتى من بـلاد الشام مبـاشرة فارا بـدينه حتى استـوطن نجران. إلا أن قصـة اعتناقه للنصرانيـة ـ كما ذكرهـا المؤرخون العرب ـ تؤكد كـونه عربيـا اعتنق النصرانية بعد أن أعجب بخـوارق العادات من قبل فيميمـون. ثم باشر نفس المنهج في الدعوة إلى المسيحية.

٣ ـ مكـــة أقام بهـــا بعـض النصـارى كما تنصر بعض المكيين إلاّ أن هـؤلاء لم ينشروا المسيحيـة أو يحرصوا على نشرهـا لأن وضع مكـة الديني مـاكـان ليسمح بانتشـار المسيحية فيها نظـرا للعادات والتقاليد الدينيـة الوثنية وأثرهـا على الناشئة. كما أن النصارى يميليون إلى إقامة بيع لهم وهـو من الأمور التي تتعارض مع منزلة البيت الحرام مع أن الـرغبة في تنصيرهـا كانت نصب عين قيصر الـروم سواء عن طـريق الغزو أو التحالف كما سيتضح بعد.

ويبـدو من خلال كتب السيرة والتـاريخ أن بعض النصارى قـد أقام بها بينما كـان البعض الآخر يـزورها ثم يـرجع. يقول ابن إسحـاق (وكان بمكة رجـل قبطي نجار فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ـ أي الكعبة ـ ثم ذكر قصة السفينة التي ألقى بها البحر حين تهدمت الكعبة وقيام ذلك القبطي بصناعة سقفها[٣٤].

---

(٣٢) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ١١٧
(٣٣) تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨١
(٣٤) الطبرى ٢/ ٢٨٧ والبداية والنهاية ٢/ ٣٠١ تاريخ العرب (مطول) ١/ ٣٢٦

ونقل ابن كثير عن أبي نعيم أنه (كان بمر الظهران راهب من الرهبان يدعى عيصا من أهل الشام وكان متخفرا بالعاصى بن وائل وكان الله قد أتاه علماً كثيراً وجعل فيه منافع كثيرة لأهل مكة من طيب ورفق وعلم. وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة في كل سنة فيلقي الناس ويقول: إنه يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة يدين له العرب ويملك العجم هذا زمانه. ومن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه فخالفه أخطأ حاجته..[٣٥].

وكان الرق سبيلاً من السبل التي مكنت بعض النصارى من الإقامة بمكة وبخاصة الأرقاء الذين أتوا من بلاد الروم أو الشام أو الحبشة وقد أكره بعضهم على الوثنية بينما بقى البعض الآخر على المسيحية.. إلا أن المسيحية قد بقيت رهينة لغتها السريانية أو الرومانية فلم تنتشر انتشاراً ملحوظا.. وكل الذين اعتنقوها من العرب هم الذين كانوا على صلة باللسان الأعجمي[٣٦]. فلم ينشر كتابهم المقدس لأنه لم يكن قد ترجم إلى اللغة العربية وكذلك طقوسهم الدينية لم تؤد في تلك المدينة[٣٧] التي كانت الطقوس فيها قاصرةعلى الوثنية. وقد كان للأسواق التجارية في مكة دورها كذلك في إتيان كثيرين من النصارى بتجارة إلى تلك الديار وبعضهم اتخذ له بها ضيعا كما أن حركة القرشيين التجارية إلى الشام واليمن قد اطلعتهم كثيراً على النصرانية دون أن يكون لها أثر يذكر. إذا ما استثنيا أفرادا معدودين حرصوا على طلب الدين الحق فانساحو في الأرض يطلبونه فمنهم من تنصر كورقة بن نوفل (وهو ابن عم خديجة وكان يكتب الكتاب العبراني من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى)[٣٨].

ويقال إن سبب تنصره - أي ورقة - أنه وزيد بن عمر بن نفيل وعثمان بن الحويرث قد خرجوا إلى الشمال فتنصروا إلا زيدا فإنه لم يدخل في شيء من الأديان بل بقى على فطرته من عبادة الله وحده لاشريك له متبعا ما أمكنه من دين إبراهيم على

(٣٥) البداية والنهاية ٢/ ٢٧٢

(٣٦) التعميم غير مسلم فى الحكم به

(٣٧) فى الفكر الدينى الجاهلى د/ محمد الفيومى ص ٨٨

(٣٨) البخارى ١/ ١٨ ــ ٢٢٣ مسلم ٩٧٨ ــ ٩٨ ط الشعب

ماذكرناه[٣٩].

وتشير المصادر العربية إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة نزلوها وأقاموا بها واتخذ بعضهم موالي لأشراف أهل مكة مثل نسطاس مولي سفيان بن أمية ويوحنا مولى صهيب الرومي وصهيب الرومي نفسه وكان مولى لعبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب وكان أسيرا في أرض الروم وكان بمكة قبطا من مصر وكان من الروم من انْدَسَّ بين تجار مكة بغية التجسس على العرب وتسقط أخبار الفرس وصلاتهم بالعرب. كما توافد على مكة تجار من الروم و الفرس ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم[٤٠].

عثمان بن الحويرث والرغبة في تنصير مكة:

خرج عثمان بن الحويرث من مكة حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده فذكر له مكة ورغبه فيها وقال: تكون زيادة على ملكك كما ملك كسرى صنعاء فملّكه عليهم وكتب له إليهم. فلما قدم عثمان إليهم قال: إن قيصر من قد علمتم. أمانكم ببلاده وماتصيبون من التجارة في كنفه وقد ملكني عليكم وإنما أنا ابن عمكم وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والإهاب فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه. وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر. وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم فأجمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوا على ذلك. فلما طافوا عشية بعث الله إليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن عبدالمطلب بن أسد فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف فقال: عباد الله. ملك بتهامة؟ فانحاشوا إليه انحياش حمر الوحش ثم قالوا: صدقت واللات والعزى ماكان بتهامة ملك قط. فانتقضت قريش عما كانت قالت له ولحق بقيصر يعلمه، ثم روى الزبير بسنده أن قيصر حمل عثمان على بغلة عليها سرج الذهب حين ملكه وأعطاه كتابا مختوما بالذهب من أسفله فلما أبت قريش الاستجابة لدعوته خرج إلى قيصر مرة ثانية وكان بعض التجار القرشيين بالشام فسألوا عمرو بن جفنة الغساني ـ عامل قيصر ـ أن يفسد على

(٣٩) البداية والنهاية ٢/ ٢٤٣.

(٤٠) تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٣٦٠/ ٣٦١

عثمان عند قيصر . فسأل عمرو في ذلك ترجمان قيصر . فأخبر الترجمان قيصر عن عثمان سوءاً حتى أوقع بينهما إلا أن عثمان تحيل حتى دخل على قيصر وعرفه ما يقتضي أن الترجمان كذب عليه ومالأ أعداءه فكتب قيصر إلى عمرو بن جفنة يأمره أن يحبس لعثمان من أراد حبسه من تجار قريش بالشام ففعل ذلك عمرو إلاّ أن العرب قد سمُّوا عثمان فمات بالشام(٤١) .

المسيحية في الشمال:

فشت المسيحية في الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة العربية . ومع أن القبيلتين اللتين وقعتا في شمال الجزيرة كانتا في صراع دائم وحروب مستمرة تتبع أحداهما الدولة الفارسية (الحيرة) بقيادة المناذرة والثانية تتبع الروم (الغساسنة) فقد كان لتنصر الحكام أثره البالغ في نشر المسيحية فقد تنصرت الأسرة المالكة أو أغلبها ــ في الحيرة ـ وكانت بالحيرة بيعة أورد ياقوت الكتابة التي كانت على واجهتها ونصها (بنت هذه البيعة هند أمة المسيح وأم عبده(٤٢) ويذكر المؤرخون أن النعمان كان راغبا في التنصر منذ فترة سابقة على تنصره إلا أنه تخوف من كسرى ملك الفرس أن يعزله كما ينسبون إليه أنه ترهب بعد ذلك وذم الدنيا وزخرفها وقد أنكر بعض المؤرخين اعتناق المنذر للنصرانية وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني فإن الذي لاخلاف عليه أن المسيحيين في حكمه قد تمتعوا بحرية الاعتقاد كما يشاءون، وقد روى المؤرخون المسيحيون أن للراهب (القديس سمعان) دوره في تنصر المنذر وإكرامه للقسيسين والرهبان بخرافات ذكروها في كتبهم . . . (٤٣) .

وأما الغساسنة فقد استقروا في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل العظيم الذي كان يربط مأرب بدمشق وكرت الأعوام فإذا غسان قد تنصرت واصطبغت بالصبغة السورية واتخذت الأرامية لغة لها . إلا أنها لم تهجر لسانها العربي الأصلي . . وقبل انقضاء القرن الخامس للميلاد غشت أرض

(٤١) البداية والنهاية ٢/ ٢٤٣ ، سمط النجوم العوالى ٢١٣ , ٢١٤ موسوعة التاريخ الإسلامى ١/ ٢٢٢ .
(٤٢) موسوعة تاريخ الإسلام ١/ ١٧٥ ، تاريخ العرب فى الجاهلية ٢٧٩ والعرب قبل الإسلام ٢٦٧ .
(٤٣) تاريخ العبر فى الجاهلية ٢٦٢/ ٢٦٤ ، العرب قبل الإسلام ٢٦٨ .

غسان مؤثرات سياسية أدخلتها ضمن دائرة النفوذ الروماني السياسي وقد قصد الروم بذلك أن يجعلوها حاجزا لرد هجمات البدو. ولما كان من مصلحة الغساسنة السياسية اعتناق النصرانية وهي دين البيزنطيين فقد اعتنقوها على المذهب المونوفيزيتي وقد استقروا أخيرا في جابية الجولان(٤٤).

كما وجدت أماكن للرهبان في بلاد الشمال للجزيرة العربية بدليل ماورد في كتب السيرة والتاريخ من أحاديث تتعلق بأمر بحيرا الراهب(٤٥). وميسرة(٤٦) ونسطورا(٤٧) وقصة سلمان الفارسي تشير إلى ذلك وتؤكده(٤٨).

كما اعتنقت بعض القبائل النصرانية في الشمال (فمن أقدم الحروب البدوية الشهيرة حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب المرتبطتين بصلة القرابة. وقد حدثت في أواخر القرن الخامس الميلادي في الشمال الشرقي من الجزيرة وكانت القبيلتان تدينان بالنصرانية(٤٩).

النصرانية في يثرب: وجدت قلة قليلة من النصارى استوطنت يثرب وأقامت بها وكان لها نشاط تجاري شبه خاص بها (كما وجد في يثرب سوق يقيمها النصارى من سكانها تسمى (سوق النبط) والمعتقد أن نبط الشام كانوا ينزلون فيها للاتجار بالحبوب(٥٠).

وقد كانت المسيحية في نجد أكثر انتشارا من اليهودية وكان بنو تغلب وجماعة من بني أسد من نصارى العرب. . ويبدو أن أول من تنصر من ملوك كندة هو معديكرب الكندي الملقب بـ «ذي التاج الأوضح). . ونعتقد أن ولديه الأسود بن معديكرب بن الحارث وقيس كانا مسيحيين(٥١).

(٤٤) تاريخ العرب (مطول) ١/ ١٠٣

(٤٥) الطبرى ٢/ ٢٧٨ ــ ٢٧٩ والبداية والنهاية ٢/ ٢٥٤ــ٢٨٥

(٤٦) الطبرى ٢/ ٢٨٠ وحدائق الأنوار ١/ ٣٣

٤٧) الطبرى ٢/ ٢٨٠ــ٢٨١ والكامل ١/ ٢٣٢

(٤٨) ابن هشام ١/ ٢١٤ ــ ٢٢٢ وسبل الهدى والرشاد ١/ ١٢٢ ــ ١٣٠ وحدائق الأنوار ١/ ١٢٣

(٤٩) تاريخ العرب (مطول) ص ١/ ١٢٠

(٥٠) تاريخ العرب القديم ٢٤٨

(٥١) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٣٣٤م/ ٣٣٥.

استخدام القوة لنشر المسيحية في بلاد العرب

حرص القياصرة على إخضاع شمال وغرب وجنوب الجزيرة العربية لسلطانهم باستخدام السيف ويمكن ذكر موقفين من مواقف الروم العسكرية لتنصير تلك الديار يدفعهم إلى ذلك أهداف دينية وسياسية واقتصادية كما سيتضح فيما يلي.

أولا: المسيحية في اليمن ودور الروم فيها

تمتعت اليمن في التاريخ القديم بموقع استراتيجي للغاية فلقد كانت همزة الوصل بين العرب والهند وبين العرب والأحباش وبها أقيم سوق تجاري بين العرب والعجم حيث تبادل البضائع وقد أدرك الرومان والفرس قيمة اليمن وقدرها فحرصت كل دولة على أن تكون لها السيادة عليها إلا أن بعد اليمن عن الفرس وضعف الفرس في ذلك الوقت حال دون إخضاع اليمن لنفوذهم بينما رأى الرومان أن في فتح اليمن سياسيا ودينيا كسباً كبيراً لهم فلما يسرت أسباب الغزو لم يترددوا لحظة عن التنفيذ.

أسباب غزو الأحباش لليمن ودور روما فيه :

لم تكن محاولة تنصير اليمن على يد الأحباش هى الأولى بل أنها سبقت بمحاولة قبل ذلك فى القرن الرابع الميلادى فقد توالت الوقائع بين الأحباش وحمير فى أواسط القرن الرابع الميلادى. جرت فيها معارك كانت الحرب فيها سجالاً وممن وافق الحميريين من ملوك الأحباش ملك اسمه (العلي اسكندر) حارب الهدهاد ملك حمير سنة ٣٤٠ م وخلفه العلى عميدة (حكم من سنة ٣٤٠ - ٣٤٨ م) حارب الهدهاد وبلقيس وفتح اليمن سنة ٣٤٥ م بمساعدة قيصر الروم قسطنطيوس رغبة فى نشر المسيحية وكانت قد دخلت الحبشة من عهد قريب على يد كاهن رومى اسمه فردمنتوس سلموه أسقفاً عليها سنة ٣٥٤ فى أكسوم(٥٢).

وفى أواخر الربع الأول من القرن السادس الميلادى توجه الأحباش مرة ثانية إلى اليمن لفتحها بعد أن حرص ملك اليمن فى ذلك الوقت (ذو نواس الحميرى) على قتل

(٥٢) العرب قبل الإسلام ١٧١/ ١٧٢

كل نصرانى فى نجـران إلا أن يتهود . فأبى القـوم اعتنـاق اليهوديـة فخذلهم الأخـدود وأتى بهم عليه وقـد أوقد فيـه النار وخيرهم بين التهـود والحرق فأبوا التهـود فألقوا فى الأخدود بسبب تمسكهم بعقيـدتهم (وبعد قتل ذى نـواس الحميرى) لهؤلاء . يقال أن واحداً منهم يقـال له دوس ذو ثعلبان خـرج على فرس لـه ومضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نـواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم وذلك لأنه نصرانى على دينهم . ويقال أنه أخذ نسخة من الإنجيل محروقة فأطلعه عليها . فقال له - قيصر - بعـدت بلادك منـا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنـه على هذا الـدين وهـو أقـرب إلى بـلادك . فكتب إليـه يـأمـره بنصره والطلب بثأره . فقـدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أربـاط ومعه فى جنـده أبرهـة الأشرم فركب أربـاط البحر حتى نـزل بساحـة اليمن وانتهى الأمر له بالنصر على بلاد اليمن وتملكها(٥٣) .

كما ذكـر الطبرى رواية ثـانية وفيهـا أن قيصر هو الـذى قال للنصرانى من نجـران (ولكننى سأكتب إلي ملك الحبشـة فإنـه على هـذا الـدين وهـو أقـرب إلى بـلادك منـا فينصرك ويمنعك ويطلب لـك بثأرك ممن ظلمك واستحل منـك ومن أهل دينك مـا استحل فكتب معـه قيصر إلى ملك الحبشة يـذكـر له حقـه ومـابلغ منه ومن أهل دينـه ويأمره بنصره وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه)(٥٤) .

يقـال أن الرجل الـذى خرج من نجـران توجـه أولاً إلى النجاشى ملك الجبشـة . فأعلمه ما ركبوا به وأتاه بالإنجيل قد أحرقت النار بعضه . فقال له الرجال عندى كثير وليس عندى سفن وأنـا كاتب إلى قيصر في البعثـة إلى بسفن أحمل فيها الـرجال فكتب إلى قيصر فى ذلك وبعث إليه بالإنجيل المحرق ، فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة(٥٥) .

وهنـا يقف العقل متسائلاً : هل ذهب ذلك الـرجل إلى قيصر الروم فكتب لـه إلى نجاشي الحبشة فأرسل النجاشي في طلب سفـن من قيصر فأمده أو أنهما رجلان أحدهما

---

(٥٣) الطبرى ٢/ ١٢٧ ، والبداية والنهاية ٢/ ١٦٩ والكامل ١/ ٤٣١ , ٤٣٢ تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨٢

(٥٤) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٢٥ .

(٥٥) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٢٤

توجه إلى قيصر والثاني إلى النجاشي أوأن الرجل ذهب أولاً إلى نجاشي الحبشة فأرسل النجاشي رجلاً من قبله إلى قيصر يستأذنه في نصرة ذلك الرجل ويطلب منه المدد فأمده . . الله أعلم .

وقد وردت بعض الروايات التى تصرح بأن اليمن قد أرسل لها ثلاث حملات هزمت الأولى وانتصرت الثانية ولكنها لم تخضع لسلطان النجاشى فأرسل لها حملة تأديبية وقيل أرسل لها حملتان هزمت الأولى وانتصرت الثانية وغزت اليمن(٥٦) .

وبهذا يتضح لنا أن فتح الأحباش لليمن كان سببه دينياً بالدرجة الأولى .

وتشير بعض الروايات العربية إلى أن أسباب الفتح كانت سياسية اقتصادية (فلقد كان لتحول ملوك أكسوم إلى المسيحية سنة ٣٢٠م أثره الكبير فى التقارب مع بيزنطة حامية نصارى الشرق وكان الأحباش يطمعون فى السيطرة على اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية دون أن تتعرض للاعتداءات التى كان يمارسها الحميريون وكانت الصلة بين نصارى اليمن - فى نجران - ونصارى الحبشة قوية مما جعل الأحباش يمارسون ضغطاً سياسياً على اليمن من طرق النصارى هناك وهذا ما جعل ذا نواس يربط بين انتشار المسيحية فى اليمن وبين ازدياد النفوذ السياسي للأحباش في البلاد . ولذلك عول على تحميل نصارى نجران عن دينهم بالقوة وعندئذ وجد «كالب» ملك الحبشة فرصته المواتية لغزو اليمن بحجة وضع حد لسياسة ذي نواس التعسفية مع النصارى(٥٧) .

وأما اليونانيون فإنهم ينسبون الفتح إلى أسباب تجارية مالية وذلك أن اليمنيين لما تضعضعت أحوالهم بتقهقر دولتهم وخروج مقاليد التجارة من أيديهم كان الرومان قد أخذوا ينشرون نفوذهم فى الشرق بواسطة النصرانية وتيسر لتجارتهم المرور في بلاد اليمن بين خليج العجم والبحر الأحمر يحملون تجارة الهند إلي الحبشة ثم إلى مصر والعرب يشق ذلك عليهم ولا حيلة لهم في منعهم فجعلوا يضايقونهم فى تسيارهم . وأراد الفرس فى أثناء ذلك أن يعرقلوا مساعى الروم أعدائهم القدامى فى متاجرهم عن

(٥٦) الطبرى ٢/ ١٢٠ ,١٢٧ ، والكامل ١/ ٤٣٢ ، والبداية والنهاية ٢/ ١٦٩ .
(٥٧) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ١٥٠-١٥١

طريق جزيرة العرب فنزل جند منهم بشواطىء خليج العجم من جزيرة العرب. فأرسل القيصر «جوستين» إلى بني حمير أن يردوا الفرس عنهم ويبعث من الجهة الأخرى إلى الأحباش أن يأخذوا بيد تجار الروم فى ذلك السبيل.. إلا أن ذلك لم يدم. فعاد العرب إلى معارضة قوافل الروم.. واتفق فى أوائل القرن السادس أن الحميريين تعدوا على تجارة الروم في أثناء اجتيازهم اليمن بتجارتهم الهندية وقتلوا جماعة منهم فتوقفت حركة التجار فشق ذلك على الأحباش فتجندوا لفتح الطريق وقطعوا البحر الأحمر تحت راية ملكهم «هداد» وحاربوا الحميريين وقتلوا ملكهم «دميانوس» (ذانواس) وجددوا المعاهدة مع قيصر القسطنطينية (جستنيان) على شرط أن يتنصر أهل أكسوم وأرسلوا إلى الأسكندرية وفداً يطلب قسيساً يعمدهم ويعلمهم فأرسل لهم رجلاً تقياً عاقلاً اسمة «يوحنا» صار بعد ئذ أسقفاً على أكسوم.

وبعد ما اقتص الأحباش من الحميريين انسحبوا إلى بلادهم ، فعاد الحميريون إلى ماكانوا عليه وعادت التجارة إلى الانقطاع. فأعاد «اليسباسى» ملك الحبشة الكرة وفتح بلاد اليمن فتحاً بحملة كبيرة حارب بها الحميريين وغلبهم على بلادهم وولى عليهم أميراً مسيحياً من أمرائه اسمه (أسيمافيوس) (السيفع) ، وأوعز إليه أن يحمل أهلها على النصرانية استنجاداً بالدين على السياسة واستعان بأسقف اسمه (جريجنتوس) كان خطيباً مفوهاً وعالماً كبيراً على أن يبذل جهده فى هذا السبيل ، وعقد مجلساً جمع فيه بين هذا الأسقف وحبر يهودى اسمه (هربان) وأمرهما بالمناقشة فى الدين. فتناقشا وكتب الأسقف بعد ذلك كتاباً نسب فيه الفوز لنفسه. وذكر أعجوبة وقعت من ذلك الأسقف حيث عمى كل الحاضرين من اليهود، فصلى الأسقف والتمس شفاءهم فعادت إليهم أبصارهم فأفحموا وتنصروا(٥٨).

وبهذا الغزو سنة ٥٢٥ هـ استقرت المسيحية فى اليمن وثبتت أقدامها ولم يتطلع حكامها إلى تنصير اليمن وحدها بل إلى تنصير العرب عن طريق الإكراه. كما تنفس المسيحيون فى نجران الصعداء وقضى على التيار الوثنى واليهودى حتى سنة ٥٧٥ هـ حين طرد اليهود الأحباش من اليمن مرة ثانية.

(٥٨) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ١٧٢ ــ ١٧٤ بتصرف.

ثانياً : غزو الأحباش لمكة وأبعاده:

بعد أن استقرت أقدام الحبشة فى اليمن وارتـدت إليها النصرانية تطلعت آمالهم إلى غزو مكة وإن تعللوا بعلل واهية لتبرير ذلك الغـزو . والحقيقة أن إرادة غزو مكة قائمة نصب عين الأحباش - عمـلاء الرومان - لأبعـاد دينية وسياسيـة واقتصادية وهـو ما نوضحه فيما يلى :

أولاً : البعد الدينى:

عرفت مكـة منذ عهد اسماعيل بأنها أرض البيت الحرام ولا يخف على أحد مـاكان للبيت من حرمة عند معظم العرب قبـل الإسلام . فضلاً عن وجود معظم آلهتهم به ، وقد أكسب هذا البيت المكيين منزلة كبيرة بين العـرب وإن حملهم عبئاً ثقيلاً فى السقاية والرفادة إلا أن الهدايا والقرابين التي كانت تقدم للآلهة الموجودة إلى جوار الكعبة كانت تفي بالكثير من حاجة قريش .

ويبدو أن أبـرهة قـد ضاق ذرعاً بـالبيت الحرام فالتمس الأسبـاب لهدمه بـاعتباره مثبت الوثنيـة فى وجه المسيحيـة فى قلب وغرب الجزيـرة العربية ولـذلك سلك السبل التالية :

١ ـ بناء كنيسة فى اليمن تسمى : بالقليس لصرف العرب إليها فى حجهم بهدف حملهم على النصرانية وقد بنيت الكنيسة بأموال حبشية وزينت ببعض المواد الخام من قبل بيزنطة فى ذلك الوقت كما استمد أبرهة العون من النجاشى وقيصر . ففى مكتوب من أبرهـة إلى النجاشي ورد (إني قـد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلهـا لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب)(٥٩) .

كما ذكـر الطبرى : أن أبرهـة بنى كنيسة بصنعـاء بناء معجبـاً لم ير مثلـه بالـذهب والأصبـاغ المعجبة وكتب إلى قيصر يعلمـه أنه يـريد بنـاء كنيسة بصنعـاء يبقى أثرهـا وذكرها وسأله المعونة على ذلك فأعانه بالصناع والفسيفساء والرخام(٦٠) .

---

(٥٩) الطبرى ٢/ ١٣٠ ، والكامل ١/ ٤٤٢ ، والبداية والنهاية ٢/ ١٧٠

(٦٠) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣١ـ١٣٢

وفي روايـة ثانيـة : أن أبرهـة بعد أن غلب على اليمن ورأى النـاس يتجهزون أيـام الموسم للحج إلى البيت الحرام فسأل : أين يـذهب الناس؟ فقـالوا مـا يأتى هاهنـا من الـوسائل ، قـال : والمسيح لأبنين لكم بناءً خيراً منـه فبناه . . وأمـر الناس فحجـوه . فحجه كثير من قبـائل العرب سنين ومكث فيه رجال يتعبدون ويتـألهون ونسكوا له ، وكان نفيل الخثعمى يؤرض له مايكره ، فلما كان ليلة من الليالى لم ير أحدا يتحرك فقام فجاء بعذرة فلطخ بها قبلته . فأخبر أبرهة بذلك فغضب غضباً شديداً قال : إنما فعلت هذا العـرب غضباً لبيتهم ، لأنقضنـه حجراً حجـراً وكتب إلى النجاشى يخبره بـذلك ويسأل أن يبعث إليه بفيلـه «محمود» وكان فيلاً لم يـر مثله فى الأرض عظماً وجسماً وقوة فبعث به إليه فلما قدم عليه الفيل سار أبرهة بالناس لهدم الكعبة(٦١) .

وفى البداية والنهاية أن عبد المطلب أراد أن يصالح أبرهة على ثلث أموال تهامة على أن يـرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم ذلك ، وقد عقب ابن كثير على هـذا الخبر بقوله : فالله أعلم أكان ذلك أم لا؟(٦٢) .

٢ - عقد التـاج لبعض العرب بعد تنصره وتوجيهـه لدعوة العرب إلى النصرانيـة بناء على رغبـة أبـرهـة ففى تـاريخ الأمم والملـوك ورد أن بعض العـرب أتـوا إلى أبرهةيطلبـون فضله منهم محمد بن خزاعى بن حزابه الـذكوانى ثم السلمى فى نفر من قومـه مع أخ يقال له قيس بن خزاعى . . وفى هـذا اللقاء توج أبرهـة محمد بن خزاعى وأمره على مضر وأمره أن يسير فى الناس يدعوهم إلى حج القليس كنيسته التى بناهـا فسار محمـد بن خزاعى حتى إذا نـزل ببعض أرض بنى كنانـة وقد بلغ أهل تهامة أمره ومـاجاء إليه فبعثوا إليـه رجلاً من هذيل يقال لـه عروة بن حياض الملاحى فرماه بسهم فقتله وفر أخوه قيس إلى أبـرهة فأخبره فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً وحلف ليغزون بنى كنانة وليهدمن البيت (٦٣) .

٣ - قيل إن أمراً مباشراً من قبل النجاشى قد أتى إلى أبرهة لهدم الكعبة قال مقاتل : إن

---

(٦١) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣٧ ,١٣٨ ، والكامل ١/ ٤٤٢ والبداية والنهاية ٢/ ١٧٠

(٦٢) البداية والنهاية ٢/ ١٧٢

(٦٣) تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٣١

السبب الـذى جـر أصحـاب الفيل أن فتيـة من قـريش خـرجـوا تجاراً إلى أرض النجاشى فـدنوا من ساحل البحـر وثمة بيعة للنصارى تسميهـا قريش "الهيكل" فنـزلوا فأججـوا ناراً فـاشتروا ، فلما ارتحلوا تـركوا النـار كما هى فى يوم عـاصف فهاجت الـريح فاضطرم الهيكل نـاراً فانطلق الصريخ إلى النجـاشى فأسف غضباً للبيعة فبعث أبرهة لهدم الكعبة آمراً إياه بذلك(٦٤).

ويؤكـد جرجى زيدان على البعـد الدينى لهدم الكعبة رابطـاً بين فتح اليمن كنقطة بدء والتوجه إلى مكة كخطوة ثانيـة فيقول : " لقد دخل الأحباش أعواناً فى فتح اليمن ثم مالبثـوا أن تحولوا فاتحين ثم نشأ منهـم جيل جديد استعمـر الأرض واستأثر بها من سنة ٥٢٥ م إلى ٥٧٥ هـ واستثمر الأحباش أرضـاً كان أجـدادهم قد نزحـوا عنها فى الأزمان القديمة واستـوطنوا الساحل الأفريقى وابتنى أبرهة عامل الـدولة الأكسومية كتدرائية فى صنعاء - عاصمة اليمن اليـوم - تعد أفخم كاتدرائية فى ذلك العصر . . . وعقد الأحبـاش النية على تنصير البـلاد ومزاحمة مكة الـوثنية ومكـة يومئـذ مزار دينى (الحج) فى أمصار الشمال وموارد الحج غنيـة عن البيان . . . ويخيل لنا أن المشرفين على سياسة البلاد من الأحباش أفلحوا فيما نووه من إنشاء مزار دينى فى الجنوب تتوارد إليه القبائل وهو أمـر يجلب الضرر إلى معبد الحجاز وحفظت الأحبار ذكرى هـذه المنافسة الاقتصادية الدينيـة فنقلت أن أبرهة كتب إلى النجاشى يقـول "إنى قد بنيت لك إيها الملك كنيســة لم يبن مثلهـا لملـك كـان قبلك ولسـت بمنتـه حتى أصرف إليهـا حج العرب)(٦٥).

ثانياً : البعد السياسى:

يجمع المؤرخون على أن الفـرس والروم كانا فى صراع دائم وحـروب مستمرة وقد جعـلا من شبه الجزيـرة العـربية مسرحـاً ومقياسـا لاختبـار القوة والنفـوذ وبخاصـة الأطراف الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية دون منطقة العمق فى قلب الجزيرة.

أما الطرف الشمالى فقد خضع الجانب الشرقـى منه (مملكة الحيرة) للفرس وخضع

(٦٤) سمط النجوم العوالى ١/ ٢٣٢

(٦٥) تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨٣

الطرف الغربى منه (الغساسنة) للروم. وذلك لدرء كل خطر متوقع من سكان الجزيرة على هاتين الدولتين أو إحداهما من ناحية ولتكون كل مملكة مقياساً لقوة الدولة التى تحالفها ضد الأخرى من ناحية ثانية.

وأما الجانب الشرقى لشبه الجزيرة فكان خاضعاً لنفوذ الفرس وسلطانهم دون أن يكون للرومان حظ يذكر فى هذا الجانب حتى اشتهر الخليج العربى الآن فى ذلك الوقت باسم «الخليج الفارسى» وقد ظل ذلك النفوذ ممتداً حتى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم - كما تشير إليه كتب السير حين كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمير البحرين وأمراء عمان داعياً إياهم إلى الإسلام أو دفع الجزية(٦٦).

ورد فى تاريخ الأمم والملوك: أنه كان بين «كسرى أنو شروان» وبين «يخطيانوس» ملك الروم موادعة وهدنة فوقع بين رجل من العرب كان ملّكه «يخطيانوس» على عرب الشام يقال له «خالد بن جبله» وبين رجل من لخم كان كسرى ملكه على عمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب يقال له «المنذر بن النعمان» قائده فأغار خالد بن جبلة على حيز «المنذر» فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وغنم أموالاً من أمواله. فشكا المنذر الأمر إلى كسرى وطلب منه نصرته عن طريق الكتابة إلى قيصر الروم (يخطيانوس) بحكم الهدنة والعهد بينهما فكتب كسرى كتباً عدة إلى يخطيانوس ولكنه لم يأبه بها. فغزا كسرى بلاد الشام (وكانت خاضعة للروم) فأخذ مدينة دارا ومدينة الرهاء ومدينة منبج ومدينة قنسرين ومدينة حلب وأنطاكية وقامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن عنوة واحتوى على ماكان فيها من الأموال والعروض ونقل السبى إلى الرومية وأجرى عليهم الأرزاق وعهد بهم إلى رجل نصرانى ليأنسوا به لحال ملته ويسكنوا إليه.

وأما سائر مدن الشام ومصر فإن يخطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه فى كل سنة على أن لا يغزو بلاده وكتب لكسرى بذلك كتاباً.. (٦٧).

---

(٦٦) راجع الإصطفاء فى سيرة المصطفى ٣/ ٣٩ـ٤٠

(٦٧) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢/ ١٤٨ـ١٥٠ بتصرف

ويؤكد حركة الصراع السياسى بين الفرس والروم على جنوب الجزيرة ما ذكره المؤرخون من أن سيف بن ذى يزن حين نشط لتحرير الجنوب من سلطان المسيحية المتمثل فى حكم الأحباش. حرص فى البدء على أن يستمد قوة من قيصر فى بلاد الروم على حكم الأحباش فى اليمن ، فرفض قيصر قائلاً : إنه لا يحسن فى ديننا أن يخرج بعضنا على بعض ، فضلاً على أن الروم لم يكونوا بحاجة إلى نفوذ فى اليمن لأنه كان قائماً أصلاً عن طريق حكم الأحباش(٦٨) فصار إلى ملك الحيرة الذى قدمه إلى عاهل الفرس كسرى أنوشروان المقيم ببلاطه فى المدائن على أمل أن يقوم هذا بنجدته تحقيقاً لحلم فارس فى السيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر(٦٩).

ولاشك أن محاولة ابن ذى يزن الاستنصار بأعظم قوتين فى العالم فى هذا الوقت واستجابة الفرس له تعبر عن قيام منافسة بين الروم والفرس للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الهند. وقصة لجوء يوسف بن ذى يزن إلى كسرى وحثه إياه على فتح اليمن وتحريرها من الأحباش قصة لا تبدو غير معقولة فقد كان من الطبيعى أن تنشأ فى اليمن حركات قومية مناهضة للأحباش.. وقد كان كسرى يعرف عظم ثروات اليمن وكان يتلهف للسيطرة عليها مادام فى ذلك وسيلة يتوصل بها للقضاء على نفوذ الروم السياسي والاقتصادى فى اليمن. كذلك تستبعد ما زعموه من أن الجيش الذى سيره لتحرير اليمن كان جيشاً من السجناء ، فليس طبيعياً أن يستهين كسرى بمثل هذا الفتح إذا كان يحرص كل الحرص على نجاح هذه الحملة(٧٠).

وكسب الفرس كثيراً من ضم اليمن إلى حوزتهم ، فقد أصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الطريق البحرى التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر كما سيطروا كذلك على الطريق البرى أو طريق الحجاز ولم يلبث الفرس أن توجوا جهودهم بفتح الشام ومصر سنة ٦١٤م وأدرك هرقل أن الفرس أصبحوا أصحاب السلطان الفعلى على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر وأنهم خنقوا دولة أكسوم الحبشية حليفة الروم(٧١).

---

(٦٨) الطبرى ٢/ ١٤٨ ، الكامل ١/ ٤٤٧ ، ٤٥١ والبداية والنهاية ٢/ ٢٧٧

(٦٩) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ١٧٢ .

(٧٠) المرجع السابق ١٧٤

(٧١) المرجع السابق ١٧٧

وأما دولة أكسوم الحبشية فكانت وكيلاً غير شرعي تنظر في مصالح بيزنطة وكان نصارى العرب يوالون البيزنطيين ويتطلعون إلى الحماية والرعاية من القسطنطينية كما كان اليهود والوثنيون والعرب يلوذون بالفرس يطلبون عطف المدائن واستغاث "سيف" بملك الفرس فأغاثه وأرسل لغوثه ٨٠٠ محارب سنة ٥٧٥م فدحر الأحباش وأخرجهم من اليمن وكفى البلاد شر حكامها الإفريقيين ، ونشأ على أنقاض ذلك حكومة مزدوجة وكان الوالى الأسمى فيها (سيف بن ذى يزن) وكان الفرس يتدخلون فى شئون اليمن حتى أخضعوها لسلطانهم إلى أن كان دخول الإسلام فيها(٧٢) .

وهناك من يعتقد بأن الهدف من حملة أبرهة كان هدفاً سياسياً لأن البيزنطيين كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت نفوذهم ضد الفرس ويستند هؤلاء على ما أورده "بروكويوس" إذ يقول " أما فيما يختص بحمير فقد كان من المرغوب فيه أن يقيموا قيساً زعيمه على معبد ويسيروا جيشاً منهم ومن المعربين لغزو فارس ، ولم يكن أبرهة يزهد فى استغلال مثل هذه الفرصة لمد نفوذه على بلاد العرب(٧٣) .

وقد ذكر الدكتور جواد على بعض الروايات التى صرحت برغبة الأحباش فى غزو أماكن نفوذ الفرس فى الجزيرة بإيعاز من الروم ، ثم عقب عليها بقوله : فهل أراد بذلك سير أبرهة لفتح مكة وبقية مدن الحجاز ليهاجم من هناك العراق وحدود امبراطورية الفرس وليمهد بذلك الطريق إلى الاتصال بالروم ، أو إنه عنى مهاجمة الفرس من مواضع أخرى تقع فى العربية الجنوبية أو سواحل الخليج(٧٤) .

ثالثاً : البعد الاقتصادى:

لقد كان الطريق التجاري في غرب شبة الجزيرة العربية ذا منزلة كبيرة في ذلك الوقت بما يعدل قيمة قناة السويس في العصر الحاضر ، حيث التوجه من اليمن إلى الشام والعكس . على الجانب الشرقي للبحر الأحمر وهناك فرع للطريق من مكة يتجه

(٧٢) تاريخ العرب (مطول) ١/ ٨٦، ٨٧ .
(٧٣) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ١٧٠ .
(٧٤) المفصل فى تاريخ العرب ٣/ ١٩٧

ناحية الشرق يصل إلى الخليج الفارسى فى ذلك الوقت ثم يتفرع إلى فرعين :

أحدهما : شمالاً حتى بلاد العراق، ثانيهما : جنوباً حتى بلاد البحرين.

وقد أغنى هذا الطريق عن استخدام البحر الأحمر والخليج الفارسي لأسباب ذكرها المؤرخون منها (أن السفن فى ذلك العهد لم تكن تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر التى تجعل الملاحة خطراً عليها كما أن شواطئه قليلة الموانىء وأن به كثيراً من الشطوط الضحلة التى كان اقتراب السفن منها أمراً محفوفاً بالمخاطر(٧٥).

ولم تكن السفن كذلك تستطيع استعمال الخليج الفارسى بسبب وجود الفرس على ساحله الشمالى وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط. وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هى الطريق المهم للتجارة عبر البادية بين الشمال والجنوب ثم بين الشرق والغرب(٧٦).

وقد ذكر أحد المؤرخين أن من أسباب نصرة كسرى لسيف قوله (نظراً للعداء الفارسى البيزنطى ولكون الاحتلال الحبشى لليمن وما يكون وراءه من نفوذ بيزنطى يؤثر تأثيراً سيئاً على الاقتصاد الفارسى من حيث تحويل تجارة الشرق الأقصى إلى أيدى البيزنطيين وحرمان الفرس من الأرباح التى تأتيهم من تجارة التوابل عبر الخليج العربى الفارسى فى ذلك الوقت - إلى المناطق الشمالية ، لوجود منافسين أقوياء إلى جانبهم هذا بالإضافة إلى ما ينجم عن احتلال اليمن من تزايد فى السيطرة السياسية البيزنطية ومن اختلال فى توازن القوى السياسية بين الدولتين العدوتين(٧٧).

لقد كان لمكة أهمية تجارية عظيمة فهى نقطة التقاء لطرق عدة تأتيها من جميع الجهات من اليمن ومن الخليج العربى ومن الحبشة عن طريق البحر الأحمر ومن مصر وفلسطين وسورية وليس المعلوم على وجه التحقيق متى كان منشؤها. إنما الراجح أن موقعها الهام على طريق القوافل التجارية قد جعل منها من غابر الزمن محطة يقيم فيها

(٧٥) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ١/ ١٥٣ نقلاً عن عصور الازدهار فى الجزيرة العربية د/ نقولا زيادة.

(٧٦) المرجع السابق جـ١/ ١٥٣ ونسبة إلى : حياة محمد ص ٧٧ د/ محمد حسنين هيكل ، وقريب منه ماورد بصفحة ٨٩ الطبعة السادسة عشر ط، دار المعارف ــ مصر.

(٧٧) تاريخ العرب القديم ٨٦

رجال القوافل أياماً بسبب إمكان العثور على ماء للشرب فيها . الأمر الذى دعا إلى ارتفاع شأنها وإلى تحويلها من محطة تجارية إلى مدينة زاهرة . . لقد تحولت طرق التجارة من جديد إلى البحر الأحمر منذ استولى الرومان على سورية ومصر قبيل مستهل النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلادى وسيطروا على تجارة هذا البحر من خليجى العقبة والسويس . بعد أن قضوا على دولة الأنباط وجعلوا محطتها التجارية تحت سيطرتهم وعلى الدولة التدمرية إذ دمروها فقضوا بذلك على حياتها التجارية ، عندئذ بدأت سفن الرومان التجارية تمخر عباب البحر الأحمر فى طريقها إلى الشرق الأقصى ، وتمر بالثغور الحجازية فى ذهابها وإيابها ولم تفقد المحطات التجارية البرية ومنها مكة أهميتها . بل زاد نشاطها بعد أن انحطت دول الجنوب العربي وتخلت عن دورها التجارى المرموق فاستلمت مكة وأهلها مقاليد التجارة فى شبة الجزيرة العربية لا سيما وأن العلاقات التجارية بين قريش وبين الأحباش الذين احتلوا اليمن وبينهم وبين البيزنطيين الذين حرضوهم على ذلك كانت حسنة(٧٨) .

إن الازدهار التجارى الذى تصيبه شبه حزيرة العرب بعامته ومكة بخاصة كان مرتهناً بطريق الهند فبحسب أن يمر الطريق إلى الهند من الشمال عبر وادى الرافدين - فارس - أفغانستان أو من الجنوب والغرب عبر شبه جزيرة العرب والخليج العربى - الفارسي في ذلك الوقت - واليمن يكون العرب إما فقراء أو أغنياء(٧٩) .

والواقع أن مكة قد استفادت من وقوعها على طريق الهند وذلك أن القوافل التجارية الآتية من اليمن ببضائع الهند والذاهبة إليها كانت تمر فيها بوصفها محطة تجارية لابد لها من النزول فيها كما أعان على ازدهار مكة وارتقائها من محطة تجارية إلى مدينة عامرة تدهور العلاقات بين حكام فارس وحكام بلاد الشام البيزنطيين ونشوب حروب طويلة بين الطرفين فى القرنين اللذين سبقا ظهور الإسلام مما أدى إلى تعطيل التجارة بين بلاد الشام والهند عبر إيران وأفغانستان وإلى انتقال النشاط التجارى إلى شبه جزيرة العرب وبخاصة ساحلها الغربى على البحر الأحمر فاتجه المكيون إلى التجارة

(٧٨) تاريخ العرب القديم ١٦٨ ، وقد سمى الخليج الفارسى فى ذلك الوقت بـ" الخليج العربى" سهواً
(٧٩) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٢٣٨ نقلاً عن دير منغم ٢٧

وانصرفوا إليها بكليتهم لاسيما وأن سقوط اليمن فى يد الأحباش قد أدى إلى خروج مقاليد التجارة من أيدى اليمنيين وانتقالها بطبيعة الحال إلى أيدى المكيين . . . الذين أسهموا فى التجارة العالمية فتاجروا مع مصر والحبشة عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء الشعيبة الذي كان ميناء لمكة فى العهد الجاهلي(٨٠) .

وقد اعتمد الروم البيزنطيون على تجارة مكة فى كثير من شئونهم ووسائل ترفهم لاسيما الحصول على الأقمشة الحريرية المزركشة الموشاه ولم يكن بوسعهم الاستغناء عما يأتونهم به . وقد ذكر بعض مؤرخى العرب بأنه كان للبيزنطيين بيوت تجارية فى مكة يستخدمونها للشئون التجارية والتجسس على أحوال العرب(٨١) .

ولقد أدرك الرومان أهمية بلاد الحجاز فأخذوا يتطلعون إلى السيطرة على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالاستيلاء على اليمن فاستغلوا تبعية شمال الحجاز للأقباط وسيروا حملتهم بقيادة «اليوس جالوس» استعانوا فيها بفرقة من الأقباط عدتها ألف مقاتل نبطى كما استعانوا بوزير الأنباط ويدعى(سليوس) أو (صالح) ليكون مرشداً لهم ودليلاً عبر مفاوز الحجاز ثم تجددت منذ أيام (جستنيان) فكرة السيطرة على الطريق التجارى إلى الهند ويذكر (بروكبيوس) أن ملك الحبشة المسيحى كان يسعى لفرض حكم مسيحى على بلاد حمير الوثنية وتدخل جستنيان بقصد توحيد جميع الأقطار المطلة على البحر الأحمر ضد فارس للسيطرة بمساعدتهم على حرير العين ولكن فارس التى كنت تسيطر على وادي الرافدين ومصبهما ظلت تحتفظ بمفتاح المواصلات فى آسيا الوسطى على الرغم من المحاولات الفاشلة التي قام بها البيزنطيون لتحطيم الستار الحديدى . ومع أن البيزنطيين أثبتوا نجاحهم فى السيطرة على الطريق البحرى عبر البحر الأحمر بفضل حلفائهم الأحباش الذين استولوا على اليمن فإنهم أخفقوا عندما حاولوا بسط نفوذهم على الحجاز عن طريق الأحباش كذلك . وفشلت حملة أبرهة فشلاً ذريعاً كما فشلت حملة «إيليوس جالوس» قبل ذلك بقرون(٨٢) .

(٨٠) تاريخ العرب القديم ٢٣٨ نقلاً عن جواد علي ٤/ ٢٠٣

(٨١) المرجع السابق ٢٤١ ونسبة إلى الأمالى ٣/ ١٩٩

(٨٢) تاريخ العربي فى عصر الجاهلية ٣٤٢/ ٣٤٣

وكانت قريش تفرض الإتاوات على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف ومن بين الضرائب التى كانت تفرضها ضريبة العشور فكانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم. وتشير المصادر العربية إلى وجود عدد من تجار الروم فى مكة نزلوها وأقاموا فيها واتخذ بعضهم موالى لأشراف مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن أمية ويوحنا مولى صهيب الرومى وصهيب الرومى نفسه وكان مولى لعبد الله بن جدعان ابن عمرو بن كعب. . وكان بمكة قبطاً من مصر ، فقد ذكروا أنه كان يقيم فيها نجار قبطى ، وكان من الروم من أندس بين تجار مكة بغية التجسس على العرب وتسقط أخبار الفرس وصلاتهم بالعرب كما توافد على مكة تجار من الروم والفرس ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم ومنهم من أقام بمكة نظير دفع جزية لحمايته وحفظ أمواله وتجارته ، وكان تجار بلاد الشام يجلبون القمح والزيت والخمور ومصنوعات الشام إلى مكة(٨٣).

ويبدو أن اتصال تجار مكة بالحبشة والصومال كان يتم عن طريق آخر غير طريق اليمن البرى هو طريق البحر فقد كان لمكة ميناء على البحر الأحمر يسمى الشعيبة ، فكان تجار مكة يستخدمون هذا الميناء والموانىء القريبة منه للاتصال بالحبشة والصومال ومصر أيضاً. . ومن المعروف أن قريشاً لم تكن تملك سفناً فى البحر الأحمر والأرجح أنهم استخدموا سفناً كانت تعمل لحسابهم(٨٤).

أبرهة يسير لهدم الكعبة

تبين لنا مما سبق منزلة مكة من الناحية السياسية والاقتصادية بالنسبة للروم والأحباش والفرس كذلك. إلا أن نأى مكة عن بلاد فارس وقربها من الحبشة فى اليمن ومقابلتها لمصر - الخاضعة لسلطان الروم - على شواطىء البحر الأحمر وإرادة الروم السيطرة على البحر الأحمر بشاطئيه في مقابل سيطرة الفرس على الخليج الفارسي بشاطئيه كل ذلك هو الذي دفع الأحباش إلى محاولة الاستيلاء على مكة مدفوعين - قبل ذلك كله - بالدافع الدينى.

(٨٣) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٣٦٠

(٨٤) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ٣٦٤ نقلاً عن أحمد ابراهيم الشريف مكة والمدينة ص ٢١.

ويبدو من الجيش الذي ساقه أبرهة وطلبه المدد من النجاشي وتخصيص الفيلة بالذكر على وجه الخصوص أن الأمر قد أخذ مأخذ الجد من قبل أبرهة حتى يحقق الأمل الذى أعلن عنه سابقاً للنجاشي «إني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب».

وأثناء توجه أبرهة إلى مكة خرجت بعض القبائل لحربه حتى تصده عن البيت إلا أن قوة جيش أبرهة قد فتكت بها ومكنت أبرهة من الاستيلاء على كثير من أمتعتها(٨٥).

ويقال أن أبرهة قد تخوف من الاستيلاء على البيت عنوة لعلمه بمنزلة هذا البيت عند الله فحرص على أن يكون الاستيلاء سلماً ولذلك أرسل إلى حماة هذا البيت كى يسلموه دون قتال ، وكانت المفاجأة أن عبد المطلب قد عدل عن إجابة أبرهة بشأن البيت الحرام إلى طلبه منه أن يرد عليه إبله التى استاقتها خيله حين السير إلى مكة مما أثار استغراب أبرهة حتى إنه أنكر على عبد المطلب ذلك قائلاً لترجمانه قل له كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى. أتكلمنى فى مائة بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه. فرد عليه عبد المطلب قائلاً أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه(٨٦).

يقول الشيخ أبو زهرة : كان هذا الكلام السهل اللين يخفى فى نفسه إنذاراً شديداً لرجل كتابى نصرانى، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه إلى أنه لا يحارب أحداً من أهل مكة وإنما يحارب الله ويهدم بيتاً بناه بأمر الله إبراهيم - عليه السلام - . . . ففى هذا الكلام تهديد بحرب لم يألفها ولم يعرفها وهى حرب الله وحرب أبى الأنبياء(٨٧).

ويبدو على هذه الرواية سمة الوضع والتكلف لإعلاء شأن مكة والحرم عند أبرهة مع أن مقدمات الإعداد والاستعداد لا تدل على أدنى قدسية لهذا البيت فى نظر ذلك النصرانى. فلقد أتى بالخيول والبغال يمتطيها الجنود باعتبارها من وسائل الحرب

(٨٥) الكامل ١/ ٤٤٢ والبداية والنهاية ٢/ ١٧٠
(٨٦) الكامل ١/ ٤٤٤ والبداية والنهاية ٢/ ١٧١
(٨٧) خاتم النبيين لأبى زهرة ١/ ١٣١

وأتى بالفيلة لهدم ذات الحرم كما أن الرواية التى ذكرها ابن كثير ومفادها أن عبد المطلب أراد أن يصالح أبرهة على ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت فأبى[٨٨] تبطل كون الرغبة إلى السلم أقرب منها إلى الحرب.

نهاية الحملة وأثرها على النصارى فى غرب الجزيرة

لقد شاءت الأقدار أن يكون نصر الله لأهل مكة على الأحباش على غير ماجرت به العادة عند العرب بمثل ما كانت الفيلة فى المعركة تمثل سلاحاً لم يعرفه العرب فى ذلك الوقت ولا قبل لهم به. وقد صور القرآن الواقعة بدءاً ونهاية أبلغ تصوير من باب إظهار المنة على الرسول ﷺ وعلى العرب قال تعالى: « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ » وهنا تذهب النفس كل مذهب فى المقارنة بين عظم الفيل وزناً وقوةً ورهبةً وبين ضآلة الطير وضعفه.. إلخ إنها قدرة الله.

وبهذا يتبين لنا أن السلاح الذى هزم به أصحاب الفيل كان خارجاً عن دائرة المألوف وأن الهلاك كان بصورة غير معهودة. سواء أكان الهلاك بالجدرى[٨٩] أم بذات الحجارة وما استودع الله فيها من قدرة على إهلاك من أصابته.

ولكن الذى لا خلاف عليه أن أهل مكة لم يستخدموا السيف فى هذه الغزوة ولم يواجهوا الأحباش لضعف قوتهم وقلة ذات يدهم ولتقدم أسلحة الأحباش على أسلحتهم مع إيمانهم بأن الحرب حرب صليبية ضد الله وضد بيته بدليل ما أنشده أبو طالب، ومن قصيدته:

لا غلبن صليبهم ... ومحالهم أبداً محالك

وانصر على آل الصليب ... وعابديه اليوم آلك[٩٠].

---

(٨٨) البداية والنهاية ٢/ ١٧٢

(٨٩) سمط النجوم العوالى ١/ ٢٣٢ وتاريخ العرب فى عصر الجاهلية ١٦٨ وابن هشام ١/ ٥٦ وابن سعد ١/ ١٣٢

(٩٠) سمط النجوم العوالى ١/ ٢٣٠ وتاريخ الطبرى ٢/ ١٣٥ والبداية والنهاية ٢/ ١٧٣.

أثر الهزيمة فى مكة (للأحباش) على النصرانية :

١ ـ كانت نتائج تلك الهزيمة إيجابية لأهل مكة بكل ما تحملة الكلمة من معنى حيث عظم شأن الحرم وشأن قريش وشأن عبد المطلب وشأن مكة ، وفشا الأمر عند العرب أجمع فازدادوا تقديراً وتعظيماً لحرمة البيت .

٢ ـ بقى النصرانى فى مكة على نصرانيته والوثنى على وثنيته والحنيفى على حنيفيته ، حيث انتفى عامل الإكراه ، ولم يستطع الأحباش صرف العرب للحج إلى القليس باليمن .

٣ ـ ضعف شأن الأحباش بهذه الهزيمة وسقطت هيبتهم وازذرى الناس بهم وخاصة بعد وفاة أبرهة الأشرم وتولى يكسوم ابنه .

٤ ـ تولدت روح التحرير لدى أهل اليمن وتجرأوا على طرد الأحباش بعد حكم دام نصف قرن تقريباً . ففي سنة ٥٧٥ م - أى بعد هزيمة الأحباش فى مكة بأربعة أعوام ، استطاع سيف بن ذى يزن أن يلتمس الأسباب لطرد الحبشة من اليمن فلما يسرت له الأسباب حاربهم وانتصر عليهم وقتل معظمهم واستبقى القليل منهم خدماً وعبيداً إلا أنهم غدروا به فى رحلة كان يقوم بها وقتلوه .

٥ ـ علم الروم بأمر الغزو ونتائجه ، وقد ترك العلم بهذا النصر فى أنفس المستشارين لحكام النصارى أثراً كبيراً فى الخوف من حرمة هذا البيت بعد أن تأكد لهم أن تبع الحميرى مالك اليمن - حين أراد غزوه وهدمه صرفه الله عنه حيث أظلمت الدنيا عليه فيه ثلاثة أيام لم ير فيها شيئاً فظهرت حرمة البيت له فكساه وتركه[٩١] . كما أن الأحباش حين أرادوه بسوء كانت عاقبتهم أسوأ من ذى قبل ، ولذلك عندما رجع عثمان بن الحويرث إلى قيصر يشكو إليه ما وجده من أهل مكة وامتناعهم عن قبول النصرانية ، كتب قيصر له إلى ابن جفنة ملك عرب الشام ليجهز معه جيشاً لحرب قريش فعزم على ذلك فكتبت إليه الأعراب تنهاه عن ذلك لما رأوه من عظمة مكة وكيف فعل الله بأصحاب الفيل . فكساه ابن جفنة قميصاً مصبوغاً مسموماً فمات من سمه[٩٢] .

(٩١) البداية والنهاية ٢/ ١٦٤

(٩٢) البداية والنهاية ٢/ ٢٤٣

الآثـــــار

استطاع النصارى أن يدخلوا المسيحية إلي شبه الجزيـرة العربية إلا أن وجودها كان متفاوت الآثار ، فبينما دانت بعض البلـدان في الشمال بالنصرانية كالغسـاسنة والمناذرة والرهـا ونصيبين وإربل وسلوقيـة وجدنـا من شرق الجزيرة من يـدين بها كالبحـرين وعمان ومن جنوبها اليمن ونجران وعدن .

كما وجـدنا بعض القبـائل كذلك مثل تغلب وبطـون بكربن وائل وطيىء ودومـة الجندل تعتنقها ومن مشاهير العرب من دان بها وقد أشار (لويس شيخو) فى موسوعته (شعراء النصرانية فى الجاهلية والإسلام) إليهم ، وإن وجه بعض النقد إلى ما كتبه هذا المستشرق وينبغى أن لا ننسى أن المسيحية كانت تحل محل بعض الديـانات وأحياناً يتم الجمع بين المسيحيـة والوثنية لـدى الشخص الواحـد . ويكفى أنها عرفـت في صدارة المعتقدات التى وجدت فى شبه الجزيرة كالوثنيـة واليهودية وعبادة الكواكب والملائكة وبعض الظواهر الطبيعية حتى كان الإسلام الذى طهر شبه الجزيرة من كافة المعتقدات إلا التوحيد الخالص لله رب العالمين .

أهم نتائج البحث

١ ـ لشبه الجزيرة أهمية بالغة عبر التاريخ من ناحية الموقع جعلت القوتين المعاصرتين لها قبل الإسلام تتطلعان إلى السيطرة عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

٢ ـ يؤمن النصارى بعالمية المسيحية وما لم نتعامل معهم على هذا الأساس فسوف نخسر الجولات الدائرة معهم.

٣ ـ نمت إرادة إخضاع شبة الجزيرة للدولة الرومانية المسيحية فى القرن السادس على وجه الخصوص وسلكوا من أجل ذلك سبلاً عدة منها (الغزو - الأحلاف- المنصرين).

٤ ـ كانت الرغبة فى تطويق شاطىء البحر الأحمر نصب عين الدولة الرومانية فى هذه الفترة كرد فعل لتطويق الفرس لشاطىء الخليج العربى (الفارسى فى ذلك الوقت).

٥ ـ كانت النصرانية فى شبه الجزيرة خاضعة من طرف خفى - للنصرانية فى بيزنطة. فضلاً عن حماية قيصر الروم للمسيحية فى شبه الجزيرة وبخاصة منطقتى الشمال والجنوب.

٦ ـ لم يستخدم الرومان فرداً من بلادهم فى الحروب التى تمت فى اليمن أو غزو مكة وإنما استعانوا بالأحباش ومن قبل من العرب واكتفوا بالدعم المادى فقط.

٧ ـ لم يقبل الرومان نصر الوثنيين على المسيحيين فى تلك الديار بمثل مافعل قيصر مع سيف بن ذى يزن قائلاً له : ليس حسناً فى ديننا أن يخرج بعضنا على بعض.

٨ ـ فشت النصرانية فى كثير من مناطق شبه الجزيرة وبخاصة الشمال والجنوب والشرق.

٩ ـ لمكة منزلتها الدينية عند الله وعند الناس (العرب قبل الإسلام). وقد كان لهزيمة أبرهة كبير الأثر فى تحرك أهل اليمن لطرد الأحباش من بلادهم.

١٠ ـ كل فصل فى معالجة القضايا السابقة يجعلها قاصرة ، فلا إمكانية لفصل الباعث السياسى والاقتصادى عن الباعث الدينى حين الحديث عن فتح اليمن (غزوها)، أو إرادة (غزو مكة).

١١ ـ الإسلام هو الذى وحد سكان شبه الجزيرة بعد فرقة عبر تاريخها وحررها من النصرانية ورد عادية الفرس فضلاً عن إكسابها مكانة فوق مكانتها وقدراً فوق قدرها.

أهـــم المراجـــع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

١ ــ ابن الأثير : محمد بـن محمد بن عبـد الكـريم الشيبانى الكـامل فى التـاريخ ط دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

٢ ــ ابن الربيع الشيبـانى عبد الـرحمن بن على بن محمـد حدائق الأنـوار في سيرة النبى المختار ط إدارة إحياء التراث الإسلامى - قطر ١٩٨٢ م.

٣ ـ ابن جرير الطبرى محمد بن جرير الطبرى تاريخ الأمم والملوك - ط دار المعارف - مصر ١٩٦٠ م.

٤ ـ ابن كثير أبو الفدا عماد الدين بن كثير البداية والنهاية - ط مكتبة المعارف - بيروت ط ٤ سنة ١٩٨١ م.

٥ ــ ابن هشام السيرة النبـويـة ط ٣ دار إحياء التراث العـربى بيروت - ١٩٧١ تحقيق الإبيارى.

٦ ـ أبو زهرة الإمام محمد أبو زهرة خاتم النبيين - مؤسسة دار العلوم - لحساب إدارة إحياء التراث الإسلامى قطر.

٧ ـ أحمد شلبى (دكتور) مـوسوعة التاريخ الإسلامى - مكتبـة النهضة المصرية ط ١١ سنة ١٩٨٤ م.

٨ ـ تـوفيق برو (دكتـور) تاريخ العـرب القديم ط - دار الفكـر - دمشق ط ١٠ سنة ١٩٨٤ م.

٩ ـ جرجى زيدان العرب قبل الإسلام ط دار مكتبة الحياة - بيروت.

١٠ ـ سيد عبـد العزيز سالم (دكتور) تاريخ العـرب فى عصر الجاهلية ، ط دار النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٧١.

١١ ـ عبد الملك بـن حسين بن عبد الله سمط النجوم العـوالى فى أنباء الأوائل والتوالى - ط السلفية مصر سنة ١٣٧٩هـ

١٢ ـ فيليـب حتى تاريخ العــرب (مطـول) ط ٣ سنـة ١٩٦١م. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع.

١٣ ـ محمد الفيومى (دكتور) فى الفكر الدينى الجاهلى - ط. دار القلم - الكويت ط٢ سنة ١٩٨٠ م.

١٤ ـ محمـد نبهان الخباز الاصطفاء فى سيرة المصطفى - إدارة إحيـاء التراث الإسلامى - قطر سنة ١٩٨٦ م.

١٥ - محمد بن يـوسف الصالحى الشامى سبل الهدى والرشـاد فى سيرة خير العباد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر ١٩٨٤.